السلوكي والمعرفي في تكوين الهوية الثقافية
دراسة في السيرة الروائية " تجربة فتى متطرف " للدكتور محمد العوين"

أ.د.إبراهيم بن محمد الشتوي [1]

[1] أستاذ الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض- السعودية alshatwy@gmail.com

الاستلام	٢٠١٦/٦/٧	المراجعة	٢٠١٦/١٠/١٣	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

الملخص:

يذهب كثير ممن يكتب عن الهوية إلى الاعتماد على المكونات الكبرى في تكوين الهوية كاللغة، والعرق، واللون، والدين، والمكان؛ فيقسم الناس بناء على ما يمليه كل قسم، لكن الحقيقة تثبت أن العناصر الصغيرة في الشخصية لا تقل أهمية في تكوين الهوية، ويتجلى هذا بشكل كبير في الجماعات الدينية التي تحرص على الاختلاف عمن سواها بالاعتماد على عناصر دقيقة تجعلها عماد هويتها الثقافية، وقد بدت هذه القضية من خلال تصوير محمد العوين لهذه الجماعات في سيرته الروائية "تجربة فتى متطرف" التي سجل فيها سيرته الشخصية منذ كان في القرية وحين انتقل إلى مدينة الرياض في أوساط التسعينات في القرن الهجري المنصرم أيام دراسته في كلية اللغة العربية وإلى أن تخرج منها.

الكلمات المفتاحة: الهوية، الهوية الثقافية، السرد، الأدب العربي، السيرة الذاتية، الأدب السعودي، الرواية.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

Behavioral and cognitive in formation of the cultural identity A study on a narrative biography: “experience of an extremist boy” by Muhammed Al Owen

Prof. Ibrahim M. Alshatwy[1]

[1] Professor of literature at the University of Imam Muhammad bin Saud Al-Eslameya-Riyadh, Saudi Arabia
alshatwy@gmail.com

Received	7/6/2016	Revised	13/10/2016	Published	30/12/2016

Abstract:

Most of studies about Identity depend on central elements on composing nations such as race, language, religion, color, gender and land. However, they neglect certain marginal elements such as habits, interests, behaviors and appearance. Additionally, these factors also play a major role in dividing people, and classifying them into categories. This case clearly shows in religious groups who impose much importance in the differences between them as real distinction in their cultural identity. This case study appears in Muhammed Al Owen’s narrative biography ““experience of an extremist boy”. The biography outlines and records his life since childhood, before he moved to Riyadh in 70s of last century, tell he graduated from Arabic faculty.

Key words: Identity, cultural identity, narrative, Arabic literature, biography, Saudi literature, the novel.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

درج أغلب المفكرين والكتاب عند حديثهم عن الهوية الاعتماد على المحددات الكبيرة كاللغة، والعرق، والدين والثقافة، واللون، والمكان، والجنس، باعتبارها هي المحددات التي تكون الأمم، وتؤسس ما تقوم عليها الجماعة، وتستحق الحرب من أجلها، وتقوم عليها هويتها.

إلا أننا في كثير من الأحوال نجد الأمر على خلاف ذلك فالمكونات الجزئية في حديث الشخص، أو في سمته، أو ملبسه، أو حركاته تعطي دلالة خاصة، تتصل بالذاتية الفردية للشخصية، وتكشف عن معاني ترتبط ارتباطا دقيقا بحقيقته، وتمثل قيمة مستقلة جوهرية عن المكون الكلي، قد لا يكشفه أو يؤديه شيء آخر، فقد كشف إدوارد سعيد في كتابه "الأسلوب الأخير" أن حالة الجسد تفرض تذوقا خاصا للجمال[1] ، مما يعني أن ما يظهر منه يفرض جوانب محددة خاصة الصلة الوثيقة بين ما يظهره الجسد وما يميزه نفسيا وفكريا، هذا التذوق بعد ذلك للجمال ينعكس على الجسد مرة أخرى. كما جاء في دراسة أجريت في جامعة أوتاه على طلابها أثبتت أن الاهتمامات الصغيرة، والأنشطة الجزئية تسهم في جمع الناس والتقريب بينهم أكثر من غيرها [2]، وهو ما أشار إليه ولتر بين مايكل في حديثه عن رواية الولد الضاحك: "حتى تكون من شعب النفاجو، لا يكفي أن تكون ولدت من أبوين ينتميان إلى هذا العرق، ولكن لا بد أن تتصرف كما يتصرفون" [3].

وهذا يتوافق مع كون بصمة الأصبع، وهي أصغر جزء في الإنسان يدل عليه، ويميزه عن غيره، فلكل إنسان بصمة يختلف بها عن الآخر، بالرغم ما تشير إليه دراسة القانوني لويس بولك من أن مستوى إثبات نسبة الفعل إلى الشخص المنسوب إليه الفعل من خلال البصمة لا يرقى إلى معايير الدليل العلمية التي جاءت بقرار المحكمة العليا في أمريكا، واقتبس فيها من دراسة سابقة توصل صاحبها إلى أن القرار بتطابق بصمات الأصبع المختلفة هو قرار غير موضوعي، وهو قرار ذاتي أكثر من أن يكون نتيجة علمية [4]. الأمر الذي دعا بيتر بروكس إلى الاعتقاد أن الإيمان بقطعية دلالة البصمة الأصبع على الفرد يعود في أصله إلى الإرث الثقافي من التنوير والرومانسية التي أفادت بأن كل واحد منا هو متفرد ونادر [5].

هذا المفهوم للهوية من خلال المتفرد والخاص هو المعنى الذي تنتجه بطاقة الهوية الوطنية، حين تميز كل شخص يحملها برقم خاص لا يتطابق به مع غيره، ويؤهله لأن يكون عضوا في مجموعة معينة عليه ما عليها، وله ما لها، فعلى الرغم أن هذه البطاقة بحجم الكف إلا أنها تغير واقعه من حال إلى ضده، يتجلى ذلك في رواية "شطح المدينة"، للغيطاني حين يفقد شخصية الرواية الرئيسة ويتحول إلى شخص ضائع في المكان، لا وجود له، لا أحد يعرفه، "لا مكان له يأوي إليه أو ينتمي إليه... فلم يعد لديه ما يثبت انتساب جسمه إليه"[6]، وهو ما لخصه موظف الفندق بقوله للسارد: "الهوية.. ما يثبت أنك أنت"[1].

يبين هذه المفارقة عادل إمام في مسلسل "العراف"[7] ، فعلى الرغم أنه نشأ في الحي يتيما لا يعرف أبويه، ولم ينشأ في أحضانهم، فقد كان ابنا لأهل الحي جميعا، أرضعته نساؤه جميعا، وأطعمه ورباه رجاله، فإنه لم يكن لديه هوية وطنية، مما يعني أنه لم يكن مصريا على الصورة الرسمية، مما انعكس على وضعه الرسمي، فهو لم يدخل المدرسة، وكانت سيارات الشرطة تستوقفه في كل مكان يذهب إليه حتى أصبح يشعر بأن هذه السيارات هي عدوه الأول.

[1] مسلسل عرض في رمضان في سنة 1434 يحكي قصة رجل نشأ يتيما لا يعرف من أبوه، أقام حياته على التزوير، وانتحال شخصيات متعددة في كل بلد ينزل فيه، فصار يجمع شخصيات مختلفة يبني أسرة في كل شخصية يقيمها ويصير له فيها أبناء. رغب أن يواجه حقيقته ويجمع أبناءه ويتعرف عليهم، ويصبح شخصية طبيعية، وحين قامت ثورة يناير أرد أن يترشح للرئاسة وكاد أن يفوز بانتخاباتها لولا تدخل الشرطة ومحاصرته بأفعاله وشخصياته المنتحلة التي جعلته يعود إلى سيرته الأولى. المسلسل عرض على قناة أم بي سي وقد قام بدور العراف الممثل المعروف عادل إمام.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

تبدو قمة المفارقة بعد ذلك حين انتهت هذه الحالة المأساوية على يد أحد أصدقائه محترفي التزوير الذي تبرع بصنع بطاقة له مزودة برقم وطني. عندها انتهت المأساة التي كان يعيشها من خلال بطاقة مزورة، وأصبح الفتى الشريد الطريد مصريا صليبة، فتحول من حال إلى ضده من خلال "كذبة". الأمر الذي يثبت بأن هذه البطاقة هي هوية قائمة بذاتها ومستقلة عما تحيل إليه من دلالة ارتباط الإنسان بالمكان.

وهذا يحيل إلى ما يقول محمد أفاية: من أن "السلطة الإدارية داخل مجتمع من المجتمعات تسعى دائما إلى ضبط أفراد المجتمع من خلال ضبط هويتهم وإعطائهم وثيقة محددة، ومن يفتقد هذه الوثيقة، في عرف هذا المنطق لا هوية له" [8] ، وهذا يعني أن المؤسسة تسعى لبناء هويتها الخاصة التي تتحدد بعدد من المنظومات الإدارية، والاجتماعية. بناء هذه الهوية ينطلق من الأوراق الإدارية التي تمنحها لتابعيها لتجعلهم يتسمون بعدد من المكونات، يحققونها من خلال شروط الحصول على هذه الأوراق، وهي بالتأكيد ليست فقط اجتماعية وإنما أيضا وهذا هو المهم سياسية.

هذه القيمة للجزئي في تكوين الهوية تظهر كذلك في عدد من النصوص تؤكد على إعطاء الشكل أهمية في التفريق بين المتشابهين، والاعتماد عليه في الحكم على حقيقة الإنسان. والأمر المشهور في ذلك هو ما تلبسه المرأة المسلمة ويسمى "الحجاب"، وقد كتب كثير من الكتاب عن الحجاب باعتباره هوية للمسلمة تميزها عن غيرها [2] بيد أن هذه الرؤية نحو الحجاب تنطلق الجانب الواقعي لما تعيشه المرأة خاصة حينما تكون في مجتمعات غير مسلمة، يميزها الحجاب عن سواها من النساء، لكننا سننظر إليه من خلال وظيفته التي جاء عليها في القرآن الكريم، إذ جاء فيه "يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" [9] ، فالهدف من هذا اللباس، ليس سترهن كما يزعم البعض، ولكن تمييزهن ليعرفن أنهن مسلمات فلا يتحرش بهن، إذا هو لتمييزهن، وللإعلام بأنهن مسلمات، وبما أنهن مسلمات فلهن طبيعة خاصة، وأخلاق معينة، وصفات محددة. وهنا أصبح الحجاب هوية لأنه يرتبط بها.

وهي الفكرة نفسها التي اتخذها عمر بن الخطاب فيما بعد حين فرض على أهل الكتاب لبس الغيار وشد الزنار، فمعلوم أن الرسول لم يفرض عليهم شيئا، ولا أبو بكر، فقد كانوا في ذلك الزمن يلبسون كمان يلبس سائر العرب، ولم تكن القضية الدينية ذات أهمية في تحديد موقعهم الاجتماعي، إلا في الحالات التي تتطلب معرفة دينهم بناء على الأحكام أو الأعراف المبنية عليه، لكن بعد ذلك أصبح تمييزهم عن سائر الناس أمرا مقصودا بشئونهم كلها ابتداء من ملابسهم، وما يركبون وكيف يسيرون في الطرقات بناء على أنها جزء من تكوينهم، ومكونا من مكونات هويتهم، يتصل بكل طائفة منهم بدليل أننا نجد في بعض كتب الفقه ما يدل على أن ملابس اليهود تختلف عن ملابس النصارى.

على أننا قد نواجه إشكالية تحيل إلى أن هذه المظاهر، سواء أكان الحجاب في حالة المرأة المسلمة أو الملابس في اليهود والنصارى الآنف الذكر، تكتسب قيمتها بناء على ما تحيل إليه، وهو الدين في الحالتين الإسلام في الحالة الأولى، والنصرانية واليهودية في الحالة الثانية، الأمر الذي يقضي بأن المكون الحقيقي للهوية هو الدين، وليس هذه المظاهر التي تكتسب قيمتها مما تدل عليه، ولا تتجاوز أن تكون دوالا سيميائية على دين من يرتديها أو ثقافته وليس لها هي، وليس قائمة بذاتها.

إلا أننا حين نعيد النظر إلى صاحب الهوية دون العناصر الجزئية التي قد يحكم بأنها دوال سيميائية، وننظر إليه من زاوية أخرى لا يكون فيها قد ارتدى ما يميزه، بمعنى النظر إلى النصراني دون لبس الزنار،

[2] نشرت كثير من المقالات والتحقيقات الصحفية التي تتحدث عن الحجاب من هذه الزاوية، وتعتمد بالحديث عن أهميته على ذلك، ومن الكتب التي ناقشت هذه القضية ولكن من وجهة نظر مغايرة لمن يراه هوية كتاب: عايدة الجوهري، الحجاب: مفاهيم ودلالات، الطبعة الأولى، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007).

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

أو إلى النساء دون لبس الخمار، سنجد أن موقع أصحاب الهويات يختلف عما كان عليه بعدها، إذ سيتداخل مع الجماعة الأخرى التي يراد تمييزه عنها، وهو ما يعني أنه سيفقد هويته، ولن يكون فئة أو جماعة قائمة بذاتها بناء على اندماجه بالآخر، وانعدام ما يميزه عنه.

وهو ما يعني أن العلاقة بين هذه المكونات، وما تحيل إليها من مدلولات أبعد من أن تكون علاقة سيميائية أو رمزا تكشف بالتأويل، إلى أن تكون جزءا من المدلول نفسه يسهم في تكوينه، وهذا ما يحيلنا إلى الحديث عن الشكل الذي اعتبره الشكلانيون الروس مضمونا [10]، والحديث عن علاقة الرمز بالمرموز له الذي يتحول فيها الرمز قائما بذاته، ذا حضور خاص [11].

وتؤكده النصوص الدالة على وجوب التفريق بين الذكر والأنثى، وتحرم المشابهة بينهما، بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء، ولعن الله المتشبهات من النساء بالرجال" [12]، فالتفريق هنا يقوم على اختلاف النوع الجندري الذكر والأنثى[3] ، ويسعى إلى إقامة الحدود بينهما حتى لا تتداخل هذه الأجناس. فلكل جنس عالمه ومحيطه الخاص، بالفعل، والثقافة، واللباس، والمظهر. والفرق بين الجنسين يتجاوز كونه فرقا في اللباس أو طبيعة العمل، أو الكلام أو الذوق إلى الفرق في أصل التكوين، فالذكر ليس ذكرا لأنه يلبس ملابس معينة، أو لأنه يقوم بأعمال معينة، وإنما لأنه يملك من الأعضاء الفسيولوجية، والإمكانات الخلقية، والميولات الجنسية ما لا تملكه الأنثى، والعكس كذلك صحيح. وهذه الملابس أو الأفعال التي يقوم بها الذكر أو الأنثى ليست رمزا للفرق بينهما، أو للذكورة والأنوثة، لأنهما يظهران على كل واحد بلا ملابس أو أفعال، فيظهران في امتلاء وجه الرجل بالشعر، وخلو وجه الأنثى منه، وببروز صدر الأنثى كما في العلامات الأخرى مما ينتج عنه إدراك جنس كل واحد منهما حتى مع اختفاء هذه العناصر الجزئية. الأمر الذي يعني أن هذه العناصر للتفريق بينهما في المظهر ليست دالا سيميائيا على حقيقة خلقها، وإنما هي عناصر مستقلة تمثل في تكوينها جوهرا قائما بذاته من الذكورة أو الأنوثة، وهنا جاء التأكيد عليها في الثقافة الاجتماعية والعزم على الالتزام بها لشدة قيمتها بالاعتماد على صيغة اللعن، وهو من أشد التحريم الذي يرمي إلى جعل هذه الملابس والسمات، والأفعال جزءا من الذكورة، أو الأنوثة الذي لا يتم كل واحد منهما إلا بها.

والأمر عينه يبدو في حكاية الصبي اليتيم الذي مثله عادل إمام في مسلسل "العراف"، فهو لم يكن يختلف عن لداته، وأبناء وطنه في شيء، وإنما يماثلهم في كل ما يتصفون به دقيقه، وجليله، ولم يكن يحول بينه وبين مصريته إلا هذه البطاقة، الأمر الذي يعني أن هذه البطاقة هي هوية قائمة بذاتها ومستقلة عما تحيل إليه من دلالة ارتباط الإنسان بالمكان، بدليل امتلاكه تلك الدلالات، وحين فقد البطاقة لم تكتمل هويته.
البحث عن الهوية في المحددات بوصفه لغة حينا وعرقا حينا آخر ومكانا حينا ثالثة أو معتقدات يعتقدها المرء في خالص تكوينه، لكن أن تتحول هذه المميزة إلى سلوكيات وتصرفات تبدو في المظهر فإن هذا يعد أمرا جديدا، وهو موضوع هذا المقال.

ذات السيرة أو سيرة الذات:

بالرغم أنه من نافلة القول إن موضوع السيرة الذاتية، هو الأنا/ الذات، فهي ببساطة "سيرة كتبها من كان موضوعا لها"[15]. فالكاتب يجهد ليقدم حياته في الكتاب الذي يقدمه لنفسه أو لغيره، يجمع أشلاءها من كل حدب، ويلخص السنوات التي مر بها والأحداث التي عاشها في صفحات معدودة، وفي الوقت الذي يجمع

[3] أخذت قضية البحث في الفروق بين الذكر والأنثى في دراسات النوع بحثا كبيرا، وقد ذهب بعضهم إلى أن التفريق بينهما تفريق ثقافي يمارسه المجتمع الذي يصنف الناس في نوعين: ذكور وإناث ويتعامل معهم بناء على هذا التقسيم، ورأوا أن تبديل التعامل يؤذن بتبدل التقسيم، وطرحوا مسألة أن الاختلافات في الجسد لا تمثل مشكلة حقيقة في التقسيم بناء على أن الإنسان روح في الدرجة الأولى.[14]-[13]

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

هذه الأحداث ويدونها، فتأتي متسلسلة، هو أيضا يربط بينها ربطا منطقيا [16] ويظهرها بصورة مقبولة مشوقة للقارئ.

والأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فكاتب السيرة لا يسرد أحداث حياته وحسب، لكنه يستعيدها في ذاكرته، ولدى من يعرفون هذه الأحداث، فيصنع منها شيئا جميلا مقبولا، هذا الجمال والمقبولية ينتج إما عن البناء المنطقي للأحداث وجعل لكل حدث في حياته معنى وسببا، كما يؤكد على ذلك الطلياني في رواية الطلياني حين قرر أن يسرد حياته لمريم، ورأى أنها مناسبة "ليعيد ترتيب الأشياء في ذاكرته، ويبحث عن معنى حياته الذي يراه مسارا من التلاشي والخيبات والخيانات الصغيرة، والتبريرات الحقيرة"[17] أو من خلال اعترافه بأخطائه وظهوره بمظهر التائب النادم على ما بدر منه، المعترف بذنبه، وهو ما يمثل نوعا من الخلاص عما بدر منه، وفي الأثر التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ومن هنا فهو إذا يبني ذاته، بل الأبعد من ذلك أنه يبني ذاته كيانا متكاملا يستطيع أن يقرأه الناس، ويدركونه، فبالإضافة إلى أنه يدون نفسه هو أيضا يؤثثها بما يراه مناسبا من أحداث تستحق القص بالقدر الذي يهمل به بعض الأحداث التي لا يراها مستحقة الذكر ولا ينبغي أن تكون جزءاً من الصورة التي يريد أن يرسمها في ذهن القارئ، فيجعلها متخيلة من حبر وورق بعد أن كانت محسوسة من لحم ودم، وعلى هذا فهو يقيد الإنسان بعواطفه، وأحاسيسه، ومواقفه إنها تدوين الذات، وصنع لتاريخ الأنا في أدق خصائصها وتفصيلاتها، فليس عجيبا أن نجد من الكتاب من ينص على هدفه من كتابة السيرة المتمثل بأن ما يكتبه هو الكشف عن القيم الذي قامت عليها الحياة، الأمر الذي يعني أنه يختار من أحداث الحياة ما يدل على تلك القيم أو يتناسب معها بصورة من الصورة، فيقول: "إن الإنسان الذي أنتم واجدون هنا إنسان يرتبط وجوده بالأسئلة التي يطرحها الموت على دلالة العالم" [18] . ولذا يمكن القول بلغة أخرى إن السيرة الذاتية بقدر ما هي تسجيل للذات هي أيضا بناء لها؛ بناء لذات جديدة يريد أن يقدمها الكاتب لنفسه، أو كما تخيل ذاته، وبدت الأحداث له، وكأنها بيان سردي لرحلة البحث عن هوية، أو تقرير لرحلة مضت.

وسواء كانت السيرة قدمت على وجه الحقيقة كما يزعم روسو في بداية اعترافاته حين ينص على أنه يريد أن يقدم "عملا لم يكن له قط من نظير، ولن يكون البتة لإنشائه أحد يقلده. إني أريد أن أري من أشباهي [من الناس] إنسانا على تمام طبيعته الحق، وذلك الإنسان هو أنا" [19] ، أم شابها بعض الأكاذيب [20]، فإن هذا لا يبدل من حقيقة واحدة هي أن السيرة قد قدمت كما يريد أن يقدمها الكاتب نفسه، وهذا يعني أنه لا يجيب على سؤال "من أنا" بقدر ما يقول "هذا هو أنا"، وهذا ما يسميه جوث (Guth) "إعادة تأكيد الهوية" [21]، فهذا "الأنا" التي يقدمها روسو أو سواه من الكتاب لم تأت لشخصية مجهولة في الغالب ولذلك ذكر روسو عن نفسه حين كتب اعترافاته أنه لم يكن في أهل زمانه في أوربا من كان اسمه مشهورا أكثر من اسمه، وشخصه مغمورا أكثر من شخصه [22]، فهو معروف من قبل، وأيا كانت هذه الصورة التي رسمت في أذهان الناس عنه، فإنه يسعى إلى صنع صورة محددة يرى أنها تأكيد للهوية التي كان يظن أنه صنعها من قبل، ويخشى أن لبسا ما قد أصابها، أو شائبة قد شابتها بفعل التأويلات المختلفة له.

وهذا ما نجده في كثير من السير الذاتية إذ نجدها تبحث في الذات، ولا تكتفي بتقديم الأحداث وسردها، وإنما تقدم عواطفها ومشاعرها، وتفسيراتها لأحداث سابقة، وأيام طه حسين التي لقيت صدى كبيرا في الأدب العربي أكبر دليل على ذلك، إذ نجده يقص أحاديثه في الأزهر، ويعيد سردها من جديد كما كانت تدور في نفسه، وعينه التي تقع على الأشياء هي عين الذات، تكبر حينا وتصغر حينا أخرى كما يعتمل في نفسه، وكيف يجدها في دخيلته، ولذا وجدنا رؤيته لعلماء الأزهر واحدة، تقوم على تقليل الشأن والانتقاص، والبحث عن الزلات، فما إن ينضم إلى حلقة إلا ويكون ذلك هدفه، فبعضهم بسبب لازمة يرددها في حديثه، وآخر يكون بغضبهم وعدم قدرة احتماله، وثالث يكون بضعف علمه وعدم قدرته على السيطرة على المادة العلمية، ورابع يكون لفسقه وعدم التزام ما يوجبه عليه العلم، ولا يكاد يسلم أحد منهم إلا واحد أو اثنين.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

ومن المؤكد أن الأمر ليس على هذه الصورة، وأن الصبي –كما في الأيام-قد تأثر بما يسمعه من أخيه الشيخ وأصحابه عن العلماء، فتأثر به، وازدادت حدته بما يتصف به من عناد وإصرار، ولقيه من نجاح ومعرفة وإتقان لبعض العلوم جعلته يثق بنفسه وبإتقانه، ويتمرد على الأزهر وما فيه من علم، وحين استقرت هذه الصورة في نفسه في ذلك زمن الحدث، سعى أن يبررها في زمن القص، وأن يبحث فيما يجعلها صحيحة مقبولة[4].

و"تجربة فتى متطرف"[24] لا تخرج عن هذه السير، فهي بناء للذات، وتقديم لها. إنها مرحلة البحث عن الهوية، فالفتى شخصية السيرة الروائية كان يتنقل باحثا عن هويته (حقيقته) من صفحات السيرة الأولى في النص التي كانت تمثل حياته الأولى في القرية وكلية اللغة العربية. تنقل فيها الفتى بين البؤر الثقافية التي يجتمع فيها معتنقو الاتجاهات الفكرية المختلفة محاولا أن يجد الصيغة الفكرية الاجتماعية التي تنطبق مع ما يجده في نفسه، والصالحة لأن يتخذها طريقا يعبر بها عن رؤيته، ويتلبسها بوصفها ذاته الكاملة كما يتخيل نفسه، وكما يحس بها في خلواته، ونوازعه النفسية والعقلية.

وليس مهما طريقة وصول الفتى لهذه التجمعات، أو وصولها إليه بناء على أن النتيجة واحدة، وهي المشاركة معها، ومحاولة البحث عما يناسبه فيها، والمرور بحالة الصراع التي تنتابه بين ما تدعو إليه هذه التجمعات ويتطلبه منه انتماؤه إليها وما يجده في نفسه مما يدفعه بعد ذلك إلى القول: إن رؤيته لذاته التي استقرت بوعيه لا تتناسب مع ما يدور حوله أو يطلب منه من وظيفة يجب أن ينهض بها أو يلتزم به من مواصفات وحدود.

هذه الحدود التي تميز كل فئة من هذه الفئات التي ترحل بينها، عن سواها تجتمع فيها عدد من السمات تضم جزءا يتصل بالرؤية، والمعرفة العلمية، وجزءا آخر يحوي نوعا من السلوكيات في الحديث والملبس وطريقة المأكل إلى بعض الأنشطة التي ينبغي أن ينخرط بها من يؤمن بتلك الأفكار وينتسب إلى الفئات، حتى تصبح جزءا منها وتغدو علامة فارقة لمن ينتسب إليها لا يمكن أن تنفصل عنه. ولكل فئة من الفئات ما يميزها عن غيرها تمييزا تاما حتى لتحكم بالفئة التي ينتسب إليها العضو من شكله الظاهر والحديث إليه دون أن يصرح بذلك، مما يدخل فيما يسميه سعيد بنكراد ب"الإرغامات الشخصية" [5] وهي الصفات التي تطبع الشخصية ذات الاتجاه الإيديولوجي بحيث تفرض عليه أن يتصف بتلك الإرغامات كجزء من إيمانه بالإيديولوجيا، وانتسابه إلى أصحابها.

هذه السمات (الإرغامات) تشكل جانبا جزئيا من تكوين هذه الجماعة بعد المكونات الكبرى، وهي الدين، أو اللغة، والمكان، والعرق، والهدف، والوسيلة حتى، ولكنها تمثل جانبا مهما في بناء هوية كل فئة من هذه الفئات حتى إنها لتمثل المرتكز الحقيقي في بناء تلك الفئات التي تتميز به كل واحدة عن الأخرى، فلا تختلف جماعة التبليغ عن جماعة الإخوان إلا بهذه السمات التي سميناها بالعنوان "المعرفي والسلوكي"، فالمعرفي الرؤية والمعارف التي يؤمن بها المنتسب إلى كل جماعة، والعلوم التي يحذقها، والسلوكي الصفات الشكلية والأنشطة الاجتماعية التي ينخرط بها مما تجتمع كلها تحت مسمى الإرغامات الإيديولوجية، التي من خلالها نحدد تكوين الهوية الثقافية لهذه الجماعة وتلك ومن ينتسب إليها بالرغم أنها لا تمثل جانبا جوهريا في تكويناها ولكنها تقوم بدور حاسم فيه.

---

[4] وهذه العادة معروفة من بعض صغار الطلاب، بأن يبدأ بتسفيه العلماء، وما يقال في الدرس العلمي، ويقلل جهودهم، خاصة من الطلاب الذين قد يصيبون قدرا من التفوق حيث يعكس جنون العظمة عند أولئك الصغار.[23]

[5] الإرغامات من وجهة سعيد بنكراد هي الصفات تفرض نفسها على الشخصية بناء على انتسابها لفئة معينة، على اعتبار وجوب مطابقة هذه الشخصية "بشكل كلي للصورة السلوكية المشتقة من النموذج الإيديولوجي"، وهي "كما أنها تحدد المعالم الأولى للشخصية، تقوم برسم الحدود الإيديولوجية الأولى التي ستؤطر الفعل السردي بمستوياته الحدثية والذهنية". [25]

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

ولا يصح القول إن هذه الجماعات ليست ذات هويات مختلفة، وإنما هي ذات هوية واحدة، فالفروق بينها جوهرية، وذلك أنها تعد نفسها متباينة تمام المباينة بالرغم ما بينها من تشابه، وليس أشد من الاختلاف بينها أن يفسق بعضها بعضا وقد يكفره بمعنى يخرجها من الدين، ويقع بينها من النزاعات والحروب كما يقع بينها من الاختلاف، فكل واحدة تعزل نفسها عن الأخرى، وتقيم حول نفسها سياجا عماده الدين، والحق، ترمي من يختلف معها من الجماعات الأخرى خارجه، بحيث لا يمكن أن تكون ذات صلة بها. وهذه الحروب بين الفصائل التي ترفع شعارا واحدا قد احتربت في القديم كما احتربت في الحديث، ففي القديم يذكر المؤرخون أن الحنابلة والشافعية قد اقتتلوا قتالا شديدا، كما يذكرون أن الشافعية قد عاملوا الحنفية معاملة النصرانية في الزواج. وفي الحديث نرى أن هذه الجماعات المختلفة تتقاتل فيما بينها في أفغانستان، وفي العراق وسوريا الآن، ويكفر بعضها بعضا، والمقولات المكفرة لعموم المسلمين لعدم موافقتهم في رأي أو موقف كثيرة ومشتهرة.

هذا الفرز الشديد القائم على الاختلاف يؤكد أن كل فئة ترى أنها فئة مستقلة بذاتها، ذات هوية مستقلة يجب أن تدافع عنها، وليس أشد من الإيمان بالاختلاف وأهميته، أن يرى الإنسان أنه يستحق أن يموت في سبيله، كما نرى في هذه الحالات التي أمامنا خاصة وأن قضية بعث الهوية والحفاظ عليها هي إحدى قضايا الجماعات الإسلامية المهمة [26].

وفي "تجربة فتى متطرف" حيث كانت الجماعات الدينية الموضوع الذي تنقل فيه السارد، نجد أن الجماعات تميز كل فئة عن نفسها تمييزا كاملا لا تقبل من خلاله بالاندماج مع الأخرى. هذا التمييز يقوم على رؤية فكرية مسنودة بمعلومات ومعارف، ومعززة بسمات تصف الشخصية المنتسبة لهذه الجماعة دون الأخرى، وببرنامج اجتماعي متكامل ينخرط به المنتسب إلى هذه الجماعة بمثابة التطبيق العملي للانتساب إليها ولكونه أحد أعضائها حتى تشكل كل واحدة منها هوية ثقافية قائمة بذاتها.

الجماعة السلفية:

بالرغم أن السارد لا يلقي عناية خاصة بهذا الاتجاه، فهو من البيئة التي نشأ بها، وينتمي إليه أهله، في حين كان مجال البحث بالنسبة للسارد/الفتى هو الجماعات الجدد التي يسعى لأن يكتشفها ويبحث في تكوينها، إلا أن السارد من خلال تقديمه للبيئة التي يقطن فيها، والشخصيات التي تمثلها وبيان أفعالها، ومواقفها قد شرح هذه المدرسة. فوالده، وصاحب والده، ووالدته، والمسجد الذي ينتمي إليه في الحي كله ينتمي في أساس تكوينه إلى هذه المدرسة. وهو ما يفسر غياب الرؤية النقدية للجماعة، أو اعتبارها حادثا طارئا على نسيج المجتمع يتسم بالنشوز والغرابة.

هذه المدرسة تتميز بالبساطة والعفوية، فأفرادها يميلون إلى الزهد والإعراض عن الحياة الدنيا والاكتفاء منها بالقليل، فهي دار ممر لا دار مقر وكل ما فيها ظل زائل في مقابل الحياة الأخرى الباقية [27] .

يرفضون كل جديد حادث فالمذياع من المنكرات التي لا ينبغي أن تكون في البيوت، وتعليم الفتيات أمر سيجلب الفساد إلى المجتمع، والتلفزيون لا يمكن أن يدخل البيوت.

وتبلغ البساطة بهم الذروة حين نقف عند والدة الفتى التي لا تفرق بين الرجال أمامها في الحقيقة والرجال في التلفزيون إذ ترى أنهم جميعا رجال ينبغي التورع عن النظر إليهم وإسدال الخمار عنهم فربما يرونها. ومهما بذلوه من الشرح ليبينوا لها أن ما تراه في هذه العلبة السحرية لا يعدو أن يكون صورا مصنوعة من زجاج بلوري، ولكنها لا تقبل ذلك ولا تقتنع به.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

بل إنهم ليرون في المدرسة خطرا يؤذن بتفلت المجتمع، وخروجه على قيمه التي نشأ عليها أبناؤه وتربوا:

"ولو علم والده بما تدعو إليه ليلى وبما أحدثته في نفس ابنه لذهب على الفور هاربا بابنته من معاقل المدارس التي تفسد أفكار وأخلاق البنات وتحولهن من طبائعهن الدينية التي جبلن عليها إلى طبائع وأخلاق الغرب الفاسدة! إن هذه هي أفكار والده عن تعليم البنات. وعن المستقبل القريب الذي ينتظرهن! وهو قلق إلى أبعد حد من اندفاع الحياة في المجتمع إلى هذا النحو، وتذكر الفتى أنه سمع والده يوما في المركز الطبي المتواضع في القرية يخاطب أحد الجيران متحسرا على أخلاق النساء حين رأى ممرضة مصرية تمسك عضد رجل لسحب الدم منه فقال: إن بناتنا سيكن كهذه في القريب العاجل يا أبا ناصر!! والمستعان!" [28].

ويورد السارد حكاية المعركة التي وقعت بعد صلاة الفجر بين الداعين لتعليم الفتاة والممانعين، الذين غالبهم من التيار القديم السلفي في حين أن المؤيدين من أنصار المتدينين الجدد، وقد افترقت الجموع وقد امتلأت أجسادهم بآثار العظ، والرفس واللكم، ولم يسلم المتحدث إلا بعد أن طوقته الحماية من رجل الأمن وأخرجته من باب الإمام بعيدا عن المتعاركين [29] .

هذه السمة الغالبة الشخصية على هذه الفئة يدعمها بعد آخر ثقافي معرفي يميزهم عن سواهم، يتمثل في مصادر المعلومات التي يتصلون بها، ويأخذون عنها معارفهم ألا وهي كتب ابن تيمية، وابن القيم، والنووي، وابن سعدي. ويقرؤون بعد صلاة العصر رياض الصالحين للنووي، وفي رمضان عقود اللؤلؤ والمرجان ويبكون مما فيه من مواعظ أو من سماعهم القرآن الكريم.

وبالإضافة إلى تلك النصوص والمصادر التي تعتمد عليها المدرسة السلفية في تكوينها، نجدها تميل نحو التواؤم الفقهي مع الظروف الاجتماعية، وضرورات الواقع الاجتماعي والسياسي، وتبتعد عن الصدامات والدخول في المتاه السياسي [30] ، فهي تقوم على السلم الاجتماعي، وتقديم الأهم وهو سلامة الآخرة على الدنيا، وتعتمد في بنائها الآخرة على سلامة المعتقد والتزود من العمل الصالح بعيدا عن السياسة. وبهذا تتميز المدرسة بالثبات والاستقرار، والركون لما اعتادت عليه وألفته، فهي ترفض الحراك الاجتماعي، وترى أن كل جديد بدعة وكل بدعة ظلالة وكل ظلالة في النار، وهو ما يؤذن باقتراب نهاية الزمن.

هنا اجتمعت هذه المكونات المختلفة سواء كانت سلوكية شخصية أو ثقافية في بناء هذه المدرسة والمنتسبين إليها، ووسمها بسمتها حتى أصبحوا يتميزون بها عن سواهم من الناس، خاصة وأننا نعلم أن المدرسة ليس لها برنامج عملي أو سمات محددة، والتعريفات التي تعرف بها مختلفة، ومتنوعة وأبرز ما يميزها هي أسماء أعلام تاريخية جمعوا العلم والزهد والجهاد، تنسب إليهم المدرسة وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، ولذا لا نعجب إذا وجدنا كثرة من ينتسب إليها[6] .

[6] انظر: مثلا حديث عثمان عبد السلام نوح في الموازنة بين الجماعة السلفية، والإخوان المسلمين حيث ذكر أن حسن البنا كان يزعم أنه من السلفيين. انظر: الطريق إلى الجماعة الأم، الطبعة الثانية، (الرياض: دار المنار للنشر، 1412/1992)، ص9. وقد تحدث د. صالح بن حميد عن تعريف السلفية وتاريخها في ورقة قدمها للمهرجان الوطني للتراث والثقافة في الجنادرية 25 في 1431/14/2هـ، كما أورد عبد الله البريدي عددا من التعريفات ونقدها بالتفصيل في كتابه: السلفية والليبرالية اغتيال الإبداع في ثقافتنا العربية، الطبعة الأولى، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2008م). ص 25 وما بعدها.

جماعة الإخوان[7]:

مثلت جماعة الإخوان المسلمين إحدى الجماعات التي ظهرت في العصر الحديث كصورة من صور رد الفعل على الاستعمار للبلاد الإسلامية، وبالرغم من حداثة عمر هذه الجماعة نسبيا إلا أنها قد أصبحت الجماعة الأبرز في المشهد العربي والإسلامي، وكان لها التأثير البارز على الفكر الإسلامي في العصر الحديث بوصفها جماعة قدمت رؤية جديدة للإسلام، وسعت إلى صياغة وجوه الحياة وفق هذه الرؤية حتى تماهت لدى الكثيرين مع مفهوم الإسلام ذاته. وكان مؤسس الجماعة قد جهد أن يضع برنامجا عمليا لنشر رؤيته، ويدعمها بالكوادر المؤهلة على حمل رسالتها حتى أصبحت ذات مواصفات تستقل بها عن الآخرين وتتميز عنهم.

وقد تناول السارد هذه الجماعة بكثير من الاهتمام، والبحث والعرض، حتى نجدها قد استغرقت معظم السيرة الروائية وقد استطاع السارد أن يتتبع جوانب متعددة من الجماعة وأن يقدم كثيرا من جوانبها المختلفة، بل يمكن القول إنها هي موضوع الكتاب.

تظهر السمة الأولى للجماعة عند نقطة البداية فيما سماه "استقطاب" [8] ، والحقيقة أنه يمكن أن يكون التوظيف أو التجنيد، حيث تبدأ الجماعة بضم العناصر التي تراها فاعلة في المجتمع المحيط بها، سواء كانت هذه العناصر متدينة أم لا، فقد بذلت الجماعة فيه جهدا لأجل أن تضمه إلى أعضائها، "فقد وجد فيه نفر من أولئك الجادين السالكين طريق الدعوة وإصلاح المجتمع ضالتهم" [31] . وذلك لما يتسم به من نشاط وإيجابية في محيطه الاجتماعي، ومحبة للمعرفة ورغبة في الاطلاع، وحرص على القراءة.
لقد بدا حرص الجماعة وهي تعرض عليه أن ينضم إليها، ثم وهي تبحث عنه، وتتعقبه في كل مكان، ولا تدعه وحيدا في "عالمه ذاك المتفرد بالقراءة والاطلاع، فها هم يفدون إليه في كل وقت؛ صباحا ومساء، لا يدعونه لنفسه؛ ...لقد جاءه أحدهم عصر يوم من أيام امتحانات السنة الثانية الثانوية فلم يجده في المنزل؛ فأخبرته (الوالدة) بأن (الفتى) يذاكر في الوادي، فلم يأل جهدا هذا الداعية المتأمل خيرا في فتاه فذهب يبحث عنه في أي واد هو؟! حتى وجده منكبا على شرح ابن عقيل" [32] .

وهذا يبدو أولا في اختيار العناصر المرشحة للانضمام إليها، فهي تحرص على أن يكونوا من المتميزين الذين لهم حضور ونشاط، ثم في المتابعة لهم، والمثابرة في الحرص على حضورهم، وعلى أن يلتحقوا بصفوفها.

ثم تظهر سمة هذه الجماعة بعد ذلك في الكتب التي بدأت الجماعة تفرضها عليه، في محل الكتب الأخرى التي لا ترغب في أن يقرأها، وهي كتب مجموعة من الكتاب الذين يتبنون الفكر الحركي الإخواني من أمثال: سيد قطب، وحسن البنا، وأبي الأعلى المودودي، وفتحي يكن، ومصطفى الرافعي، ومالك بن نبي،

---

[7] نتحدث عن سمات الجماعة كما جاءت في السيرة الروائية باعتبارها قد أصبحت مكونات للجماعة، ولا نتحدث عن غيرها من المصادر بالرغم أننا حين نوازن ما جاء في هذه السيرة مع مصادر أخرى نجد تطابقا كبيرا في التجارب التي مر بها الفتى مع غيره من التجارب، وفي الحالات التي ذكرها مع غيره من المصادر كما أشرنا في بعض المواضع.

[8] يعني الاستقطاب البحث عن العناصر المميزة، ثم بذل الجهود لضمهم إليها، وقد تميزت الجماعة بهذا الأمر حتى يكون أكثر عناصرها أو الذين يتولون القيادة فيها من العناصر ذات الكفاءة العلمية والاجتماعية، وبهذا استطاعت أن تضم إليها عددا كبيرا من الكتاب، والنقاد، والمفكرين، والشعراء. وهذا أمر يحمد لها في ظل عدم وجود برامج عربية للعناية بالكفاءات العلمية والعقلية، وإهدار الخبرات العربية، إلا أن الذي يؤخذ عليها في هذا الصدد اتخاذها مواقف مناهضة لمن لا يتفق مع رؤيتها، أو لا يقبل الانضمام إليها تقوم على التهميش، والإقصاء، والتحذير، والمحاربة في الرزق أحيانا عوضا عن الحوار العلمي ومواجهة الفكر بالفكر.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

ومحمد إقبال، ومصطفى السباعي، وسعيد حوا، وزينب الغزالي، ويوسف القرضاوي، في محل نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، ونزار قباني، وتوفيق الحكيم، وعباس العقاد، والكتب المترجمة.

والسارد وإن لم يذكر أن الجماعة قد استبعدت الكتب الأولى التي كان يتدارسها مع جماعة المسجد ككتب ابن تيمية، والنووي والعسقلاني، وابن عبد الوهاب إلا أن عدم ذكر هذه العناوين مع الكتب التي أوصت بها الجماعة يدل على أنها ليست من مصادرهم الفكرية والثقافية، وأن المصادر التي يوصون بها هي المصادر الأولى التي يذكرونها.

يساند هذه المصادر أنشطة اجتماعية تقوم الجماعة من خلالها بنشر الأفكار، والمعارف التي يجدونها في الكتب التي يقرؤونها، وتمارس قناعاتها، وتجمع أنصارها، وقد مثلت هذه الأنشطة علامة فارقة للجماعة تقوم بها في كل مكان وهي تتمثل بالآتي [33] :

1. **الخلوات البرية:**

فالجماعة تخرج في خلوات برية تكاد تكون أسبوعية بأنصارها، والمنتمين إليها، بحيث إنها تمثل برنامجا تواصليا مع أعضائها، وتنشر ما يريدونه من رؤية وأفكار فيها، وتمثل عامل جذب للانتماء إليها من أجيال جديدة من الشباب.

2. **الأنشطة المدرسية:**

فالأنشطة المدرسية أيضا مثلت عنصرا من عناصر هذه الجماعة، سعت دائما للسيطرة عليها، والعمل فيها ونشر ما تراه من أفكار ورؤى. وقد تعددت هذه الأنشطة ما بين لقاءات مختصرة، ولقاءات مطولة وبرامج كاملة.

3. **الرحلات إلى مكة والمدينة:**

وهي تماثل الرحلات الأخرى في القيمة والوظيفة، إلا أنها تختلف عنها من حيث النوع، فهي إلى أماكن إسلامية وتاريخية، ولذا فإن طابع الرحلة منذ البدء يختلف بناء على المكان، وما يمكن أن يقوم به هناك، فالعمرة تمثل برنامجا كاملا يشغل به أعضاء الجماعة أنفسهم وتتصل بالقيم العليا التي يعلنونها وتمكنهم من ممارسة الأنشطة الأخرى كإقامة الدروس والمواعظ والمسابقات.

4. **الزيارات الخاصة:**

وهي زيارات تقوم بها الجماعة للكبار من أعضائها يتحدثون عن شئون الجماعة وما يشغلهم من قضايا، وقد تكون هذه قريبة، وقد تكون بعيدة للمشاهير من أعضائها.

وقد جاءت هذه المناشط كلها في السيرة الروائية التي بين يدينا، أشار إليها السارد مرات عدة بإيجاز حينا وتفصيل حينا آخر، فذكر أنهم يخرجون في خلوات برية إلى شعيب (الخابية) فقد صور السارد إحدى الرحلات البرية التي قام بها مع الجماعة وكانت مخيما في البر، مرت مشاركة الفتى معهم بمراحل عدة قبل أن يوافق والده، ككل مرة يريد فيها الفتى أن يخرج مع الجماعة، يقوم بها أعضاء الجماعة بدور كبير حتى يقنعوا والده بالذهاب معهم.

يقول السارد في وصف المخيم البري الذي ذهب إليه:

"اختير للمخيم موقع متميز بين لفيف من أشجار السلم الوارفة الظلال. وضربت خيمتان كبيرتان؛ واحدة للمنام، وأخرى للجلوس والكلام!.. وكان صوت الشيخ المقرئ محمد صديق المنشاوي –رحمه الله-يصدح بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، وقد وضع على (تندة) السيارة المقابلة للخيمة الكبيرة مسجل له سماعتان كبيرتان، مما أضفى على المكان حالة خاصة بالغة الرقة والشفافية والروحانية متداخلا ذلك الصوت الخاشع الحزين بمشاعر فوارة

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

تجيش بها نفوس هؤلاء الفتية الأنقياء الصادقين العازمين على أن يكونوا مقدمة ونواة المجتمع الإسلامي الوليد الجديد" [34] .

يتبع ذلك وصف لما يدور في الجلسات، يكشف عن السمة الخاصة التي تتسم بها الجماعة، وما تطمح إليه من عمل، مما يتكرر في جميع أعمال الجماعة ومناشطها. وهذا يعني أن الجماعة تعد نفسها فئة مختلفة عن غيرها من الفئات الاجتماعية ولذا فهي تصطفي الآخرين لتحقيق رسالتها الخاصة.

وجاءت المناشط المدرسية في الأحداث المتمثلة بدار العلم التي ذكر فيها السارد أن فيها عددا من الأعمال التي قاموا بها كالخطبة الحماسية التي يعلن فيها الخطيب رفضه لما يراه أمامه من منكرات في المجتمع يعزز بعدها عن دين الله، ويؤكد على منهجها الجاهلي، ثم مسرحية تحكي قصة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وما مر به من محنة لرفضه القول بخلق القرآن، أتبعت بعد ذلك بقصيدة هادرة "تتحدث عن أوضاع الأمة الإسلامية السيئة في كل مكان من كشمير وباكستان، وتركيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي ثم تم توزيع الجوائز وهي كتب إسلامية لمح منها الظلال لسيد قطب، ومذكرات الدعوة والداعية لحسن البنا، والحجاب لأبي الأعلى المودودي وغيرها" [35] . وقد كانت المناشط تصاحب بالتكبير الشديد الذي يفصل مقاطعها سواء كانت خطبة أو مسرحية أو قصيدة، وهو ما يزيد حماسة المتلقي ويذكي من تمازجه مع موضوعه وينشئ شعورا بالتداخل بين الملقي، والحاضرين.

وقد قامت الجماعة برحلة إلى مكة والمدينة باصطحاب الفتى معها، صاحبها ما صاحب الرحلة إلى البر من محاولة إقناع والده، وتكرار زيارته أصحابه، ثم انطلقوا إلى مكة وفي طريقهم يقفون للصلوات، وربما ألحقوها باستراحة يلعبون بها الكرة قليلا، أو قد يصحبها وأما الرحلة نفسها فيتخللها مسابقات، ونكات، وقفشات وربما قام "الأخ الأكبر"[9] . ببعض الخطب التي يحلل فيها الواقع ويبين بعده عن منهج الله والإسلام.

وحين بلغوا مكة قاموا بعمرتهم، وأدوا مناسكها، وكان برنامجهم يعتمد بالإضافة إلى أداء الصلوات والتراويح وقراءة القرآن إلى درس بعد صلاة الفجر يتحدث فيه المسئول عن الرحلة عما يدور حولهم ورأيهم فيه.

وفي الزيارات الخاصة تقوم الجماعة بترشيح العناصر التي ترى أنها قادرة على حمل رسالتها في المستقبل، ويمكن أن تمثل لها هذه الزيارات قيمة روحية وعلمية، وقد قام الفتى بزيارة أحد كبار الجماعة في بيته، كما مرت الرحلة في طريقها إلى مكة بأحد أعضاء الجماعة وتناولوا عنده طعام العشاء.
وكانت الزيارة الأهم التي قامت بها الجماعة هي الرحلة إلى شبه القارة الهندية لزيارة الأعلام من المفكرين الإسلاميين في تلك المنطقة ممن كان لهم تأثير كبير على الفكر الإسلامي الحديث، وكانت الجماعة تعتمد كتبهم مصادر لفكرها من أمثال أبي الحسن الندوي، وأبي الأعلى المودودي، وقد قامت الجماعة بتنظيم رحلة إليهما شارك فيها الفتى، وصف فيها شيئا مما رآه هناك، بل إنه قام بتنظيم برنامج الرحلة الثقافي، وكان مسئولا عن تنفيذه.

وهذه البرامج تعبر عن الجماعة وعن شخصيتها، وكذلك المسابقات فيها والأعمال الموجودة فيها، فلا بد أن تكون متوافقة مع رؤية الجماعة الكلية، وقد بدت هذه الوظيفة للبرنامج الثقافي في الرحلة إلى شبه القارة

[9] يأخذ مصطلح "الأخ الأكبر" Big Brother مفهومات سياسية بحيث يطلق على الدول الكبرى المتحكمة بالدول الأخرى، وهو مستمد من السلطة التي يأخذها الأبن الأكبر في العائلة على إخوته حين يمارس عليهم سلطته بناء على كبر سنه في العائلة خاصة حين يطلق أبوه يده على إخوته الأصغر منه سنا. وهو هنا لأن الأعضاء في جماعة الإخوان يلقب بعضهم بعضا بالأخ، وهو الأكبر إما لعلمه أو سنه أو لمكانته في الجماعة.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

الهندية حين أصر الفتى وهو المشرف على الرحلة على دخول أفرادها إلى أحد المتاحف بالرغم من وجود طالبات إحدى الجامعات الهندية في المتحف، ورفض المشرف عليها هذا الأمر لأنه يتعارض مع مبادئ الجماعة، ثم أصر الفتي على رأيه حتى أعوزهم إلى التصويت، ثم بعد أن أدخل قصيدة كتبها الفتى في البرنامج بعنوان: "إلى ذات الساري الأخضر" وكان قد كتبها إلى فتاة هندية رآها في بهو الفندق الذي يسكنون فيه، مما أدى إلى استرابة الشيخ حامد به وبمواقفه هذه، بل عرضه بعد ذلك لسيل كبير من النقد بناء على أن للشعر غاية، وأن إضاعته في هذه الموضوعات مفسدة للشعر أي مفسدة [36] [10] .

والسبب في هذا أن الفتى قد أخل بصفة مهمة من صفات المنتسب إلى الجماعة، وتمثل مكونا مهما من مكوناته ألا وهي الطاعة العمياء التي تحدث عنها الفتى عن حاله في الجماعة عندما كان في مكة: "لم يكن الفتى حفيا أين يسكن؟ ولا كيف يسكن؟ ولا مع من يشاركه المبيت من أعضاء الجماعة؛ فذلك كله عائد إلى أمير مجموعته، فهو المتصرف الآمر الناهي، وما عليه هو سوى أن يؤمر فيطيع كما تقضي تعليمات الجماعة، وكما يفرض نظامها الصارم" [37] .

فإصراره على مواقفه أمام أمير المجموعة، وأمام الجماعة كلها جعله يكسر سمة محددة من سمات التابع، وهي الطاعة العمياء التي تميز كل من ينتسب إلى هذه الجماعة، وهي سمة سلوكية تصاحب العضو في كل مناشط حياته، يبدو ذلك من موقف الفتى حين ذهب إلى المستشفى مرافقا لأخيه، وفي موقفه من الممرضة حين امتنع عن النظر إلى الفتاة، وحاول فتح الباب حتى لا يكون في خلوة معها، أو الخروج من الغرفة وتركها للفتاة ريثما تنتهي من عملها، وحين أصرت على أن يساعدها بدأ يساعدها وقد صرف عينيه إلى الناحية الأخرى [38] .

وقد أشرت من قبل إلى أن الجماعة تستقطب عناصرها ممن تتوسم فيهم القدرة على حمل رسالتها، فهي تبحث عن سمات معينة يجب أن تتوافر فيمن تراه أهلا لعضويتها. هذه السمة حين تتكرر، وتتأكد في كل عضو من أعضائها تصبح سمة سلوكية لأفرادها جميعا، وهذا ما وجدناه في الفتى الذي يتسم بالجد والنشاط، والمساهمة في مناشط المجتمع من حوله، ومناشط المدرسة، فكان يقدم الفقرات في الإذاعة الصباحية، وصوته يجلجل من مكبرات الصوت في المدرسة كل صباح محاكيا عبد الباسط عبد الصمد حتى نصحه بعض كبار السن بالحذر من العين، وكان يقرأ على الناس في المسجد بعد صلاة العصر من "رياض الصالحين"، ويؤمهم في صلاة التراويح في رمضان ملونا صوته ومنغما آي التنزيل حتى يبكي الارجال، وتنشج النساء من خلف الستار، وحين يقرأ من كتاب " عقود اللؤلؤ والمرجان" بكاء الرجال بدعوات الرجاء. بالإضافة إلى ما يعرف به من حب للقراءة، والاطلاع، والمعرفة، وتفوق في المدرسة في قريته الصغيرة.

هذه السمة السلوكية المتمثلة بالإيجابية والنشاط، والجد في العمل قد اتسم بها الفتى قبل انضمامه إلى الجماعة، وكانت سببا في اصطفائه ذلك، ثم ظلت صفته فيما بعد، وقد أهلته إلى القيام بعدد من الوظائف أهمها ترشيحه ليتولى أمر مكتبة الثقافة التي من خلالها يتم تزويد القرية بكتب الجماعة [39] ، وتمثل منفذا علميا لها يتم من خلالها اللقاء، والاتصال بالآخرين، ونشر مجلات الجماعة الخاصة كالإصلاح، والبلاغ، والدعوة. ثم قدرته على المشاركة بمناشط الجماعة المختلفة والترحل إلى الرياض حيث يتمكن من تزويد المكتبة وتغذيتها بالكتب الجديدة، وحمل الاشتراكات الأسبوعية من الصحف والمجلات، وما تبع ذلك من كتابة المقالات في الصحف والمشاركة في النقاش الدائر حول رؤى الجماعة وما يدور فيما حولهم من مواقف. كل هذا كان ميزة سلوكية خاصة به يراها المرء منذ الوهلة الأولى.

[10] وإلى هذه الرؤية تعود وجهة نظر الجماعة فيما يسمى بالأدب الإسلامي، التي تحدث عنها سيد قطب في كتابه: في التاريخ فكرة ومنهاج، الطبعة السادسة، (القاهرة: دار الشروق، 1403هـ/1983)، ص11 وما بعدها.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

ويرافق هذه السمات سمة أخرى تتمثل بالسعي إلى إبعاد ما لا يتفق مع الجماعة وفكرها، ورؤيتها، أو ما لا يسير في ركابها، فقد ذكر السارد أن الجماعة تمارس "عملية الإحلال أو الإبدال، إحلال عضو الجماعة المتصف بالالتزام شكلا ومضمونا والمعبأ بالرؤى الإسلامية التغييرية محل العناصر غير الملتزمة والتي كثيرا ما تصفها الجماعة المنحلة أو الفاسدة أو البوهيمية" [40] .

وقد ما رست الجماعة هذا الفعل على الفتى حين حرصت أن تصل إليه كتب الفكر الإسلامي بالإهداء ثم استبدلت المجلات التي يقرؤها بمجلات أخرى تلتزم بفكرها، [41] ثم بدأت تنكر عليه قراءة كتب طه حسين، ونجيب محفوظ، ونزار قباني وإحسان عبد القدوس، ما جعله "يخبئ كثيرا من هذه القراءات عن مرشديه من الجماعة؛ لأنه يعلم مقدار تحرجهم من إقباله على هذا اللون من الكتب؛ لم يجد بدا من الصد قليلا عن كثير منهم" [42] لأنهم يريدون أن يحصروه في قراءة كتب بعينها.

بل يحرصون على أن يظل سائرا في الركب منفذا ما يملى عليه من الجماعة، غير مراعين ما قد يصيب العضو من تطور في العلم والمعرفة، والرؤية، ولذا حين يتخذ مواقف مغايرة للجماعة، يعبر عنها بكل وضوح وصراحة ويصر عليها تبدأ الريبة تحيط به من قبل الشيخ حامد، ويبدأ ينظر إليه بتمعن وريبة شديدة [43]، تؤكد لديه بعد قصيدته "إلى ذات الساري الأخضر" انتكاسة الفتى، ووقوعه في الحور بعد الكور [44] .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى أن يدعوه المشرف على النشاط الطلابي، ويواجهه بالشكوك التي تدور في النفوس، وبالمآخذ التي أخذت عليه في رحلته إلى شبه القارة الهندية، وفي قاعة الدرس من مخالفة الرأي والحدة في مواقفه مما تعتقده الجماعة سواء في قاعة الدرس أو سواها من القضايا الفكرية. مما أدى إلى خيبة أمل الجماعة فيه لأنه لا يتفق مع سلوك العضو الناجح، بالرغم أنها كانت تعقد عليه آمالا عراضا كما أشار السارد في أكثر من موقع وتقرنه ببعض الأسماء الذين يحملون راية الجماعة وأفكارها في الجامعة، إلى أن ينتهي الحوار إلى تخيير الفتى بين القبول التام بكل ما تقوله الجماعة، والانصياع لها أو ألا يكون منها، وسيعد من الخارجين على قواعدها:

"وصلت إليه الرسالة واضحة وجلية، إن كنت مع فستكون ثالث ثلاثة من نجوم الجامعة، وستحظى بالإعادة، وسيكون لك شأن. وإن كنت ضد أو حتى مختلفا بعض الاختلاف فإن مصيرك سيكون غير جيد، وستكون معدودا من المنتكسين الذين ينظر إليهم بحذر وريبة" [45] .

هذا الجانب الإقصائي الفرزي القائم على ثنائية إن لم تكن معي فأنت ضدي، جعل أعضاء الجماعة في سلوكهم يتصفون بصفة واحدة في ظاهرهم، وفي أفعالهم، وهو ما يؤكد أن السلوك الظاهري هو جزء من مكون الهوية لهذه الجماعة، وعنصر من عناصر تكوينها، ولذلك فهم لا يقبلون معهم من يخالف هذا السلوك ويبعدونه من عضويتهم.

المعرفي في تكوين الهوية:

على أن العنصر السلوكي قد لا يكون هو المكون الوحيد في بناء جماعة الإخوان، بل إن المكون المعرفي لا يقل أهمية عن السلوكي، بل ربما يفوقه في الأهمية إذا اعتبرنا السلوكي نتيجة عن المعرفي، وليس قائما بذاته، ولكننا نعلم أن السلوكي هو جزء قائم بذاته في الفكر الإخواني، بالرغم أنه غير كاف عن المعرفي الذي يشكل الرؤية.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وقد بسط السارد الجانب المعرفي الذي يكون الجماعة والذي ينبغي أن يتسم به فكر من ينضم إليها ابتداء من المصادر التي تحدث عنها وتطالبه الجماعة بقراءتها ومرورا بالمحتوى الذي تضمه الدروس والعظات التي تقال في كل لقاء أو خلوة برية، أو اجتماع في منزل أو نشاط.

تبدو ملامح هذا الجانب المعرفي منذ الصفحات الأولى في دعوة الفتى إلى أن يتحمل مسئولية تجاه أمته، فالأمة هي المحيط الواسع التي تتحرك به، والتي تنتمي إليه، وليس الوطن، أو القبيلة. تتكرر هذه الكلمة "الأمة" عدة مرات دون أن يكون هناك مرجع محدد. وبناء عليه فقد أصبح إنشاء "أمة إسلامية من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق لا منازع لها ولا مكافئ" [46] ، من سمات الخطاب المعرفي للجماعة، وقد بدا ذلك في حديث الفتى عن الاجتماع المنعقد في منزل التركستاني حين "رأى في تلاقي هذه الوجوه بسحنتها المختلفة وانتماءاتها المتعددة خير ما يطمئنه على نبل اتجاهه الإسلامي، وعلى خيرية الحركة التي ينتمي إليها؛ فلا فرق بين من هو من أصول غير عربية، ومن هو من أرومة عربية قحة، ولا فرق بين من هو على جانب كبير من العلم أو من وجاهة المنصب ومن هو طالب متطلع للمعرفة" [47] .

هذه الوحدة تتأسس بعد ذلك على هجاء المجتمع المحيط بهم المتصف بجميع أنواع الفساد، والمثالب مما يجعله مجتمعا جاهليا ضالا بعيدا كل البعد عن المجتمع الإسلامي المنشود [48] ، الذي تمثله الجماعة بشبيبتها المؤمنة، وتهيب بأبنائها السير في طريقه.

هذه المثالب، والمفاسد تحدد بالتشبه بالغرب، والميوعة، والتبلد، والضعف، والتبعية والاستسلام لتقليد الغرب الكافر، والإعراض عن نصرة إخوتهم في الدين من المسلمين في بقاع الأرض كتركستان، وموروا، والهند وفلسطين وغيرها.

وهذه المآسي والمشاكل التي تقع للمسلمين في أصقاع المعمورة هي الوسيلة الكبرى لتغذية مشاعر الغضب، والحماسة في نفوس شباب الجماعة حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من خطاب الجماعة ولقاءاتها، فلا يلتقي أعضاؤها حتى يقوم خطيب فيهم يتحدث عن الفساد الذي يحيط بالأمة الإسلامية، بل أصبحت الشخصية المسلمة هي الشخصية الناقمة على الواقع والمجتمع [49] ، والجاهلية التي تعيشها، وما حل بها من الضعف والهوان حتى تلتهب الحماسة وتضج الحناجر بالتكبير، وقد يغذي هذه الحماسة، ويشيع السخط من خلال الحديث عن النقص في الجوانب الخدمية والتلميح بالمسئولين، أو النقد القاسي لما يبدو في الإعلام من مشاهد، كما كان يفعل عبد الحميد كشك، [50] والإسلام هو الحل لكل هذه المآسي التي تواجه المسلمين، والذي ينبغي أن يسير عليه المسلم، فيبني "حياته الخاصة والعامة كما يريده الله، وكما يصوغه الإسلام" [51] ، فالإسلام هو الحل لمشاكل الاقتصاد والتعليم، وتدني الأخلاق، والأمانة. الإسلام يقدم رؤية شمولية تحتوي تقسيمات دقيقة ومعالجات لكل جزئية؛ المرأة، العدالة الاجتماعية، العدالة المالية الإسلامية [52] .

وواضح من خلال ما سبق أن الخطاب الإسلامي في هذه التجربة يقوم على جانبين:

1. إثارة النقمة والسخط على المجتمع من خلال ما يرونه من مظاهر الفساد، والتخلف، والضعف، والجهل.
2. إثارة الحماسة بين الشباب للإصلاح والانخراط في مجموعة تعلن أنها هي القادرة على قيادة المجتمع وإصلاحه، وإخراجه مما هو فيه.

يتبع ذلك إعلان أن الإسلام هو الحل لهذه المشاكل بجميع أنواعها، مستعينا بالنصوص الشرعية التي تعالج بعض مظاهر الفساد، دون البيان الدقيق لما يمكن أن يقوم به، أو البرنامج التفصيلي، وهو ما وصم هذا الخطاب، وجعل حماسة الفتى فيما بعد تخف عن التمسك به.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

جماعة التبليغ:

تمثل الجماعة إحدى الاتجاهات التي تمثل الحركات الإسلامية في العصر الحديث، وكان ظهورها في السيرة يمثل وجودها في مجتمع الفتى، وارتباطه بها. وهي تتسم كغيرها من الجماعات ما يميزها عن سواها من جوانب سلوكية ومعرفية وقف عندها السارد في حديثه هنا.

فالجماعة خليط من السوداني، والهندي، والباكستاني، واليمني، والسعودي يؤمنون على ما يقوله شيخهم دون اعتراض أو استفهام. [53] وإذا كانت هذه هي صفات تتوافر في جماعة الإخوان أيضا فإن هؤلاء الأعضاء يزيدون بأن تلك الطاعة قد توجت بالبيعة التي يأخذها أميرهم في نهاية كل لقاء، دون بيان ما تكون عليه هذه البيعة، وهو ما يعني الطاعة التامة العمياء، كما يزيدون عنهم بتواضع أحوالهم الاجتماعية، فهم يبيتون في المسجد في فرش متواضعة، تغلب عليهم الدروشة في ترد للمظاهر الخارجية.
هذا التردي منطلق من الولاء لمبادئ التبليغ القائمة على الزهد، والتقشف، والبعد عن ملذات الحياة الدنيا، والتطهر الذاتي، وليس بالضرورة بسبب الضعف المادي، والاجتماعي لهذه الجماعة، ف"قناعات الأفراد التبليغيين بأن الإسلام والدعوة تنحصر في العبادات وبتخليص المسلم من حب الدنيا، ومن الانصياع للشهوات، والإقبال على الله بالتفرغ للعبادة وتطهير النفس، والإخلاص للعمل التبليغي والانقياد إلى ما تعزم عليه من رحلات دعوية في الداخل والخارج" [54] .

وما عدا ذلك فيغلب عليهم تواضع الفكر، والبعد عن نقد المجتمع أو إثارة الشحناء والبغضاء، والسخط عليه كما هو حال الجماعات الأخرى، بل يبلغ بهم الحال إلى ترك أفرادهم يعملون ما يشاءون من أعمال تخالف ما يؤمنون به من مبادئ ما دام ذلك يرغبهم في الجماعة والانضمام إليها كما هو حال الشاب التبليغي الذي وجده يشرب البيرة في مؤخرة الطائرة وهو في رحلته إلى الهند [55] .

وعلى الرغم أن البرنامج السلوكي للجماعة يحوي نوعا من التراتبية التنظيمية، وخروجا منظما مع الجماعة ينذر فيها المنتسب إليهم نفسه (إحالة خارجية) إلا أن السارد لم يتناول هذه القضية، ولم يفصل بها وذلك لعدم انتظامه معهم انتظاما كاملا كما هي حاله مع جماعة الإخوان، ومع ذلك فقد وقف على جوانب مهمة في تمييزهم عن سواهم.

وإذا بلغنا الجانب المعرفي للجماعة نجده يتردد بهذه القضايا المتمثلة بالدعوة إلى تطهير النفس، والعناية بتزكيتها، والدعوة إلى الإعراض عن ملذات الدنيا، والزهد فيها، والنأي بالنفس عن المجتمع الفاسد، فالانتساب إلى التبليغ يعني "أنه ينقطع عن مفردات الفساد اليومية ويهاجر بنفسه وبروحه مع الجماعة أينما حلت أو رحلت لأنها –كما يرى المتحدثون-المجتمع البديل الصالح"، مكتفين بهذه الرقائق اليسيرة التي تؤكد هذه المعاني مع قراءة في كتاب "حياة الصحابة" لكاندهلوي، وكتاب رياض الصالحين، [56] .

البحث عن الذات:

سبق القول إن الاتجاه الديني بوجهه السلفي قد نشأ مع السارد منذ نعومة أظفاره مترسما خطى والده في القرية، غير مكتف بالتقيد به مظهرا بل كان منخرطا بعدد من الأنشطة الاجتماعية الدينية التي تثبت انتسابه إلى ذلك التيار وحمله جزءا من مسئولياته، فكان يقرأ الأحاديث بعد الصلوات على جماعة المسجد، وربما أمهم في صلاة التراويح، كما كان يتولى إذاعة المدرسة الصباحية.

بيد أنه منذ الوهلة الأولى يعيش صراعا حادا بين نوازعه الشخصية الفردية، وما يقوم به من دور إصلاحي، بدا أول ما بدا في حادثة الفتاة التي كانت تنتظره عند الباب في طريقه إلى المسجد مفتعلة تنظيف ما

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

يقرب من باب الخروج، لافتة الانتباه إليه بابتسامة مشرقة داعية هفت لها نفسه، ومال إليها قلبه لولا أن صوتا قطع عليه أحاسيسه تلك، وجعله ينصرف إلى ما كان ينوي أن يقوم به.

على أنه من الممكن القول إن هذه النزعات التي تراوده هي نزعات طبيعية، فالإنسان مجبول في تكوينه على الصراع بين طبيعتين، أو اختيارين نوازع الخير والشر، وليس معنى أن مجرد ميله إلى أمر يناقض ما يدعو إليه التدين بوجه عام يعني أنه يرفض ذلك المبدأ أولا يناسبه، إلا أن الفتى قد اتخذ من هذا أداة للوصول إلى تكوينه الشخصي الحقيقي والهوية التي وصل إليها. ونحن نعلم أن هناك كتبا كثيرة تساعد الذين يسيرون في طريق الدعوة على التغلب على نوازعهم النفسية، والتطهر من كل ما يعيقهم من الكمال لتحقيق أغراضهم.

بيد أن الكاتب لم يقصر هذه النوازع على النواحي الفطرية التي تعتري قلب الشاب ممن هو في عمره، وإنما ضم إليها في البحث عن ذاته بعدم الالتزام بما تطلبه منه الجماعة في قراءته الثقافية، واستجابته لرغبته الملحة بالاطلاع على كتابات طه حسين والعقاد، ونجيب محفوظ، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، ونزار قباني، وغادة السمان، وسهيل إدريس، وتوفيق الحكيم بالرغم من إصرار الجماعة على رفض هذه الكتب، واختلاسه الأوقات التي يكون فيها بعيدا عن أعينهم حتى يشتريها.

هذان الاتجاهان يجعلانه في دخيلته يشعر أنه غير مؤمن بقدرته على تحمل مسئولية الجماعة التي ترغب في أن تلقيها على عاتقه حين لجت نفسه بالتساؤل بعد أن أخبره أحد الإخوة بأنهم يتعشمون به أن يتحمل مسئولية كبيرة "لا تخلو من تضحية وفداء" [57] فقد تساءل عن قدرته على القيام بهذه المهمة من حيث المقدرة العقلية، والفكرية، ومن حيث الطهر وصفاء الروح، فهو لا يقدر على مواجهة شهوات نفسه ورغباتها، فكيف سيصلح العالم [58] .

على الرغم أن ذلك القلق قلق إيجابي، فهو يعني أنه في حالة مراجعة لنفسه وتطوير لها بما يتناسب مع ما يراه من مقاييس مثالية تطمح له الجماعة، وهو ما يتفق مع شخصية المثقف الطموح المثالي الإيجابي، ويتفق مع طبيعة جدلية الواقع والمثال المعروفة. إلا أن الفتى نظر إلى الجانب السلبي منها بوصفها إرهاصات على التحول، وأنها تنبئ عن حقيقة نفسه الدفينة التي لا تتناسب مع متطلبات الجماعة وحقيقتها.

الأمر الذي غذى الصراع في داخله بين ما يجده في نفسه وما يطلب منه أن يعمله كلما تذكر الأقوال التي تتردد في ذاكرته "احفظ المعالم، وتذكر أنك مهيأ للعب دور ما" [59] ، مما يدفعه إلى إجابة هذا الهاجس بأنه لا يرغب في ذلك، فشخصيته، وتكوينه النفسي لا يتناسب مع ما يتطلبه ذلك من عمل سري أو هدم، أو اقتحام أهوج، فهو مسالم، لطيف، شاعري مقبل على الحياة بكل متعها، ومحرماتها، يعاني صراعا داخليا شديدا بين ما يشعر به من رغبات متمردة نهمة شيطانية، وما يظهر عليه من نسك وطهر [60] .

وحين ألحت عليه النفس في عذاباتها تقابل بين ما يراد منه، وما يشعر به، بين كتب حسن البنا، وكامل الشريف، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس التي تتزاحم في رفوف مكتبته، اصطلح معها على أن تكون كما هي، فحينا تكون نفسا شفافة مثالية تبحث عن عالم الجمال وتستجيب له، وحين جسدا ملتهبا يبحث عن المتعة والجمال أيضا مع ما يتابع ذلك من استجابة للجماعة ما يطلب منه ما أمكن.

وقد رضي بهذا الصلح فكان يقرأ ما يرغب به من كتب الأدب العربي بفنونه المختلفة، ويستمع لأم كلثوم في الإذاعة وفي السيارة، بل ألح على أن يحضر المذياع في المنزل بوصفه صورة من صور إرضاء ما يجده من نزعات ذاتية، ونشر مقالة عن التأثر بالأجنبي في تقاليد البلاد ينعى فيها تفشي هذه الظاهرة، وألقى

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

محاضرة عن الأندلس (الفردوس المفقود)، و(أصحاب الأخدود)، وبدأ أعضاء الجماعة يهنئونه على ما بدا فيه من مستوى عال [61] .

وبالرغم أنه مر ببعض الحوادث التي تتفق مع ما يصفه بطبيعته الشهوانية إلا أنه أعرض عنها وسار في اتجاهه الطهراني مع الجماعة وتحقيق ما يتطلبه منه موقعه فيها إلا من قراءاته المتنوعة اللاتي تخالف اتجاه الجماعة الثقافي المعرفي، ويسترق إليها الوقت والمال من دون علم الجماعة ورضاهم أيضا.

وفي غمرة هذه التبعية الكاملة، والاندماج التام مع الجماعة وأهدافها يعاوده شعور القلق في نفسه الذي يثير تساؤلات حول أفكار الجماعة القائم على الإقصاء المؤدي إلى التكفير، أو حول مصادر تمويلها، والإنفاق عليها مما جعله يستريب فيها وفي أفرادها [62] ، أو حول موقفه في كل ما يدور حوله القائم على الذوبان التام في الجماعة، والانقياد الكبير حتى لا يصبح له شخصية وهو ما يرفضه ولا يقبله، ففي كل غمرة إنجاز يجد السؤال عن حقيقته، وما يريد، وإلى أين هو صائر يعيده إلى نقطة البداية في موقفه من الجماعة وإقباله عليها، ويبعث في داخله سؤال ما يحقق ذاته أهو ما يقوم به الآن، وهل هذا ما كان يبحث عنه قبل سنوات حين تمرد على قواعد والده باحثا عن بناء شخصية مستقلة عن والده جديدة حين بدل التوقيت من الغروبي إلى الزوالي وبذل جهودا تكلل بعضها بالخسران حتى يدخل المذياع في منزلهم،[63] ثم تجاوزه قواعد والده والأدب حتى تتمكن أخته من دخول المدرسة، فيصير إلى إقناع نفسه بأن ما أعطته الجماعة له لا يقل أهمية عما أعطاه والده له، وأنها قد عمقت إحساسه بذاته، وقيمته من خلال الدور الكبير الذي يضطلع به، وهو ما يبعد عنه القلق إلى حين، وهو موقف طبيعي ذكره ابن رشد حين أكد "أن ولادة هؤلاء أشرف من ولادة الآباء لأن الآباء ولدوا أجسامنا والعلماء ولدوا أنفسنا. فالشكر لهم أعظم من شكر الآباء، والبر بهم أوجب، والمحبة فيهم أشد، والاقتداء فيهم أحق" [64] .

بيد أن هذا الغرق في عوالم الجماعة، والشعور الإيجابي لم يمنع هذه الأسئلة أن تطل برأسها كلما جاءت مناسبة، فمن شباك غرفته في الجامعة حيث منظر قبور العود يجد نفسه في موازنة مع الأموات، ويجد أن انغلاق حياته على مجموعة معينة ذات رؤية محددة تجاه الآخرين، وعلى منتجاتها الفكرية، ووصم من عداهم بالكفر والزندقة والفسوق، لا يختلف عن هؤلاء الذين حبسوا في القبور، مما جعله يلج بالهروب من أعضاء الجماعة بالرغم من زياراتهم المتكررة له في غرفته باحثين عنه، يمتنع عن مقابلتهم لعلهم ينصرفون، الأمر الذي يزيد تساؤلاته، ويزيد حدتها للحد الذي يصير في داخل نفسه، وهو يستمع إلى طرق الباب من لدن أحد زملائه إلى التساؤل: "إلى أين أنت ذاهب أيها الفتى؟ وأي المصائر تختار؟ أأنت تحيا؟ أم أنت في عداد الأموات كواحد من أولئك الساكنين والهامدين من مئات السنين أمامك"[11] . ثم يذهب في حوار تأملي طويل عن الطريق الذي يذهب إليه، وغايته وما يوصل إليه مما يجعله يتعارض مع منهجه.

إذاً كان السؤال الذي يطرحه هو من أين تنبع هذه السلوكيات والأعمال التي يقوم بها، والصفات التي يتصف بها، أهي من داخله أم تملى عليه من الخارج، وقد كان الجواب الذي يعود إليه في كل مرة ينبعث هذا السؤال هو أنها من خارجه، ولا تتوافق مع صورته كما يتخيلها كثيرا، بل يجد ما يخالفها قبل أن ينضم إلى الجماعة وبعد انضمامه.

إلا أن الهزة العنيفة التي ضربت الفتى وكأنها توقظه من منامه، وتواجهه بما آل إليه حاله، كانت من فتاة عربية تعمل ممرضة في إحدى مستشفيات الرياض، حين تعجبت من حاله، ورفضت كل ما يعده من

[11] ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، ص 8-9. نقلا عن فتحي المسكيني، الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجية لمسألة "النحن"، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الطليعة، 2001)، ص111.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

مسلمات، ونقدت كل أطروحاته، وسخرت بها، [65] ثم نعت عليه ضياع شخصيته في عباءة الجماعة ودهاليزها، وألا يسكون تابعا ولا إمعة ولا مصفقا ولا منقادا إلى حيث يؤمر [66] .

لقد نسجت منه شخصا آخر وزرعت فيه بذرة الاعتزاز، والذات القائمة المستقلة التي تجعل من نفسها ندا لأولئك العلماء الذين وضعوا تلك الأفكار، فصار يتساءل ألا يمكن أن يكون مفكرا، ومنظرا كما يفكر هؤلاء وينظرون ويفسرون الدين، هل ختم العلم بهم، وهل لا بد أن يكون معهم حتى يكون على صراط مستقيم؟ .[67]

إن هذه الأسئلة جعلته يتيقن أنه ينبغي أن يسير في طريق آخر، وأن ذاته الحقيقية التي ألح على طمرها، والتنكر لها فيما سبق هي هويته التي يسعى إليها، والتي لا تحدها حدود أو أطر ضيقة لجماعة أو أخرى، وإنما يكون فيها منطلقا على سجيته، ومنفتحا على الجميع دون أن يكون لديه حرج أو تصنيف لأحد، لم يعد ذلك الذي يخرج ويدخل وفق مواعيد الجماعة، ويسأل أين سيذهب ومع من، ويلاحق ليعلم حركاته في كل مكان، ويقرأ وفق قائمة تحددها له الجماعة، ويرفض وفق رؤية الجماعة، لقد استعاد هويته الجديدة القائمة على أنه هو الذي يحدد خياراته، ويتخذ مواقفه بناء على رؤيته وليس بناء على مواقف آخرين.

ولعل الموقع الذي حير شخصية السيرة الروائية هو بين أن يكون متميزا، منفردا يقيم الحدود والعوازل ويبحث عما يميز نفسه به تمييزا دقيقا وخاصا، أو أن يكون مشاعا مشتركا بين الثقافات متذوقا جميع الطعوم، ذائبا في الأمم، كائن عائم يشبه العلامة، -كما وصفها الغذامي- تعوم حرة تغري المدلولات لتملأها بما يناسبها [68]، سابحة في كل سياق، وفي كل نص، أو كما وصفت شخصية رواية "ألف" للكاتب البرازيلي باولو نفسها بأنها اكتشفت داخلها ذاتا جديدة أكثر جاذبية، ومغامرة وانفتاحا للعالم والتجارب الجديدة، وأن الذات القديمة غير مجدية في مواجهة التحديات الجديدة [69] .

وهو موقع إشكالي، فالأمم تبحث عما يميزها، وهي في الوقت نفسه تأخذ من بعض، فنحن نعلم من التاريخ أن العرب في القرن الثاني بل قبل ذلك قد أخذوا من الفرس والروم كثيرا من عاداتهم، وأصبحوا يتداخلون معهم في طريقة عيشهم، ولبسهم.

صحيح أن الدين أيضا يعلي من قيمة "الاختلاف" بوصفه مكونا من مكونات الأمم ينبغي على الأمة أن تتمسك به، وعنصرا تلتئم عليه الجماعة في حدودها، فكأن التميز أم مهم، وغاية في نفسه حتى ولو كان عن طريق الاختلاف المقصود، ونحن نقرأ في الحديث النبوي مثل قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من تشبه بغيرنا"، وهو ما يعني أن الاختلاف أمر مقصود لذاته في هذه المواضع للتميز عنهم.

وفي الاتجاه المقابل جاء ذم التشبه بالآخرين، وذمه، فنهى عن التشبه باليهود والنصارى، بل اعتبر التشبه نوعا من الأنواع الانتساب في الجماعة والدخول فيها، فقال: "من تشبه بقوم فهو منهم". ومع هذا نعلم أن هذا الخطاب لم يكن يوجه برنامجا دقيقا تتحول الأمم المؤمنة به إلى جماعات متطابقة تمام المطابقة بل نجد أن كل أمة من الأمم آمنت بهذا الخطاب تلقته بطريقته، وميزت نفسها عن الآخرين بصورتها، فنجد مثلا الأندونيسيين يختلفون عن الباكستان، الذين يختلفون بدورهم عن الأفارقة بناء على عادات القوم في مكانهم قبل أن يعتنقوا الإسلام، مما يعني أنهم لم يخالفوا الكفار من بني قومهم مخالفة تامة، كما أنهم لم يروا بأسا بالتشبه بهم أيضا في أحوالهم، ومعاشهم [12] .

[12] تشير إلى هذه الفكرة بشكل سريع أمارتيا سين وتضرب على ذلك مثلا بانفصال البنغال عن الباكستانين بالرغم من اتحاد الدين، وذلك لأسباب لغوية، وأخرى تتصل بالأدب والسياسة ولم يدفع هذا أحدا لاتهامهم بالخروج من الدين.[70]

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

ولعل اتجاه الفتى الجديد هو الذي دفعه إلى أن يغير شكله، فيما سماه "New Look"، فقص شعره وفق نظام معين، وحلق ما كان يعتمر من شعر على الذقن "سكسوكة"، ثم لبس العقال حتى "يكمل به صورته الجديدة" [71] . مع أن هذا التغيير الذي أصاب الشاب في شكله لا يجعله من غير تصنيف، بقدر ما يجعله منحازا من فئة إلى أخرى، وإذا كان قد تخلص من تصنيف الآخرين بالكفر والإيمان، فإنه قد فعل الأمر عينه بالنسبة للجماعات الإسلامية. إضافة إلى أن ما كان يكرهه من التزام للجماعة للقيام بمهامها أصبح يقوم مكانه بما يلتزمه للصحيفة التي يعمل بها، من اجتهاد، ونشاط وسفر، ومقابلات، وكتابة مقالات وغيرها من الأعمال التي يتطلبها موقعه الجديد.

بيد أن الفاصل بين هذين الأمرين، هو ما يجده في نفسه حيال كل واحد منهما، ويشعر بأنه يعبر عن ذاته الحقيقية، ويمثل هويته الشخصية، وقد ذكر الفتى في مواضع متفرقة أن هذه الحال الأخيرة التي صار إليها تمثله أكبر تمثيل، وتتوافق مع طبيعته المتنوعة التي تجمع المثال، والطموح لتحقيقه بطبيعة ابن آدم المجبولة على التقصير، وتجمع بين الرغبة في تحقيق نهضة الأمة لكن من خلال الوطن والوفاء بمتطلباته الحضارية التي لا تجعله في شقاق مع المعرفة ولا شروطها الاجتماعية والعلمية، وهذا ما رأى أن وضعه الأخير بالاندماج مع أبناء الوطن المخلصين يوصل إليه أكثر من غيره.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

المراجع

[1] Edward W. Said, *On Late Style*.(London:Bloomsbury,2007), p3.
[2] Malcolm Gladwell, *The Tipping Point*.. (New York: Back Bay Books /Little Brown and Company, 2013), P35.
[3] Walter Benn Michael , Race into Culture: A Critical Genealogy of Cultural Identity,p.672.
[4] Peter Brooks, *Enigmas Of Identity*. (New Jersey: Princeton University Press, 2013), P11.
[5] Ibid, P13:
[6] إبراهيم الشتوي، الصراع الحضاري في الرواية المصرية، الطبعة الأولى، (الرياض: مطابع الحميضي، 1422ه)، ص665.
[7] شطح المدينة، طبعة دار الشروق، (القاهرة: دار الشروق، 1992م)، ص209.
[8] الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، د.ط، (المغرب: أفريقيا الشرق، 1988)، ص16.
[9] سورة الأحزاب، آية 59.
[10] بوريس أيخنباوم، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، ص41.
[11] إبراهيم بن محمد الشتوي، سلطة الرمز، جريدة الجزيرة، عدد 443، 1435/8/23.
[12] الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق كمال يوسف الحوت، د.ط، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ج5، ص98. باب 34 كتاب الأدب. حديث رقم 2784.
[13] Judith Butler. *Bodies That Matter, on the discursive limits of "sex"*. (London: Routledge, 1993).
[14] And *Gender Trouble: Feminism and the Subversion Of Identity*. (New York: Routledge, 1990).
[15] جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، الطبعة الأولى، (أبها: نادي أبها الأدبي، 2011/1432)، ص19.
[16] ليون إدل، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقي خطاب، الطبعة الأولى، (بيروت: دار العودة، 1988)، ص17.
[17] شكري المبخوت، الطلياني، الطبعة الثالثة، (تونس: دار التنوير للطباعة والنشر، 2015)، ص313.
[18] جورج ماي، مصدر سابق، ص102.
[19] جان جاك روسو، الاعترافات، ترجمة خليل رامز سركيس، الطبعة الأولى، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، ص33.
[20] فيليب لوجون، السيرة الذاتية والميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، الطبعة الأولى، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994م)، ص44.
[21] تيتز رووكي، في طفولتي دراسة في السيرة الذاتية العربية، ترجمة طلعت الشايب، الطبعة الأولى، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002)، ص277.
[22] جورج ماي، مصدر سابق، ص51.
[23] طه حسين، الأيام، الطبعة السادسة والعشرون، (القاهرة: دار المعارف، 1979)، ص ص100-150.
[24] محمد عبد الله العوين، تجربة فتى متطرف سيرة روائية، الطبعة الأولى، (الرياض: المؤلف، 2011).
[25] النص السردي نحو سميائيات للإيديولوجيا، الطبعة الأولى، (الرباط: دار الأمان، 1996)، ص 93-97.
[26] عبد السلام حيدر، الأصولي في الرواية، الطبعة الأولى، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003)، ص15.
[27] محمد العوين، مصدر سابق، ص 39.
[28] المصدر سابق، ص190.
[29] المصدر سابق، ص50.
[30] المصدر سابق، ص73.
[31] محمد العوين، مصدر السابق، ص14.
[32] المصدر السابق، ص16.
[33] كتاب الأصولي في الرواية، عبد السلام حيدر أن حسن البنا هو الذي سلك هذه المناشط لضم الأتباع إليه، ولجماعته. ص21 وما بعدها.
[34] المصدر السابق، ص 42.
[35] المصدر السابق، ص 109.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

[36] المصدر السابق، ص221.
[37] المصدر السابق، ص137.
[38] المصدر السابق، ص167.
[39] انظر: المصدر السابق، ص36.
[40] انظر: المصدر السابق، 87.
[41] انظر: المصدر السابق، ص ص16، 17.
[42] المصدر السابق، ص25.
[43] انظر: المصدر السابق، ص215،214.
[44] انظر: المصدر السابق، ص221.
[45] المصدر السابق، ص232.
[46] المصدر السابق، ص55.
[47] المصدر السابق، ص90.
[48] المصدر السابق، ص43.
[49] المصدر السابق، ص64.
[50] المصدر السابق، ص62،55،44، 133،109،108، 161، 186.
[51] المصدر السابق، ص54.
[52] المصدر نفسه، ص133، وص43.
[53] المصدر السابق، ص97.
[54] المصدر السابق، ص96.
[55] المصدر السابق، ص204.
[56] المصدر السابق، ص97.
[57] المصدر السابق، ص18.
[58] المصدر السابق، ص19.
[59] المصدر السابق، ص19.
[60] المصدر السابق.
[61] المصدر السابق، 25-31.
[62] المصدر السابق، ص 110، 111.
[63] المصدر السابق، ص120.
[64] المصدر السابق، ص155.
[65] المصدر السابق، ص168.
[66] المصدر السابق، ص 213.
[67] المصدر السابق، ص 220.
[68] الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، الطبعة الثانية، (الرياض: المؤلف، 1412/1991)، ص46.

[69] Paulo Coelho, Aleph. (London: Harper, 2012), p.11.

[70] الهوية والعنف وهم القدر، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، الطبعة الأولى، (بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2012)، ص50. وسبق للكتاب أن صدر بترجمة أخرى في سلسلة عالم المعرفة في الكويت.
[71] محمد العوين، المصدر السابق، ص 291.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.